

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم التاريخ

**الأثار السياسية و الاقتصادية للعلاقات
المغولبة - المسيحية - الممالكية
منذ سنة 643 هـ / 1245م إلى سنة 807 هـ / 1405م**

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

قائمة أعضاء لجنة المناقشة:

- | | |
|----------------|--------------------------|
| رئيس اللجنة | -أ.د. محمد العزيز بوكنة |
| مشرفاً ومقرراً | -أ.د. أحمد شريفى |
| عضوا | -أ.د. فتويدر بشار |
| عضوا | -أ.د. نبيلة محمد الشكور |
| عضوا | -د. سيدي موسى محمد شريفى |
| عضوا | -د. فاطمة بوعمامة |

تحت إشراف الأستاذ:
أ. د. أحمد شريفى.

من إعداد الطالب:
مصطفى بن حسين

السنة الجامعية 1436 - 1437 هـ / 2015 - 2016م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع:
إلى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروفه و تنهى عن المنكر وتؤمن بالله.
و إلى كلّ شريفه رفيع راية الحق بعلم وخشية وذاد عنه.
و إلى والدي الذين سمرا على تربيتي و تعليمي حتى صررت رجلاً.
و إلى أستاذي الدكتور المحترم أحمد شريفى الذي شجعني، و علّمني من
بعض ما علّمه الله، جزاه الله عنا كلّ خير، آمين...

مصطفى بن حسين.

أهم الاختصارات

A.I.B.L.	Academie des Inscriptions et Belles Lettres.
Ds.	Dans
C.M.H.	Cambridge Mideaval History.
C.U.P.	Cambridge University press.
D.A.	Documents Armeniens.
D.O.	Documents Orientaux.
H.O.	Historiens Occidentaux.
J.A.	Journale Asiatique.
P.U.F.	Presse Universitaire de France.
R.H.C.	Receuil des Historiens des Croisades.
SP.	Speculum.

مقدمة

I - أهمية الموضوع وإشكاليته :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد ... فقد شكّل اكتساح المغول، منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، لمناطق شاسعة من آسيا وأوروبا الشرقية مُنعطفاً ملموساً للمسار الحضاري، شرقاً وغرباً، لما أحدثه من تغييرات جغرافية وسياسية وعقدية، ولهول الخراب والفضى التي كانت جيوشها البدائية تُحدثها عبر الأقاليم والدول التي سقطت في قبضتها، فالحدث إذا له أهميته الخاصة في تاريخ المشرق الكبير، لما له من انعكاسات بالغة التأثير على العالمين الإسلامي والمسيحي، فكان إيذاناً ببعث علاقات استراتيجية بين عُصرين المغولي والصليبي، في أوروبا والمشرق، وذلك في إطار الحركة الصليبية الرامية إلى تفويض أركان الإسلام في الشرق والغرب، كانت نتيجته ميلاد عصر جديد استحقّ تسميته عصر المغول.

الواضح أنّ المشرق الإسلامي تعرّض منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، و لفترة تزيد على ثلاثة قرون، لأخطار خارجية، بلغت من الشدة والعنف ما كاد يلحق الضرر بالحضارة الإسلامية و جاءت هذه الأخطار، أوّل الأمر، من جهة الغرب المسيحي، بإقامته إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، في عمق المشرق الإسلامي، ولكن ما لبث القائد صلاح الدين الأيوبي أن استردّ ، بعد معركة حطين في 25 ربيع الثاني سنة (583هـ/1187م)، بيت المقدس وسائر ما بأيدي الصليبيين من حصون، ولم يبق، لهؤلاء الصليبيين، سوى أنطاكية وطرابلس والساحل بين مدينتي صور و يافا، التي بقيت في اتصال دائم بغرب أوربا.

وأثناء هذه الأحداث، كان يسود العالم المسيحي، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، أسطورة عرفت باسم : أسطورة الكاهن يوحنا مفادها أنّه سوف يظهر في الشرق البعيد أمير مسيحي يملك من السلطان والقوة ما يُمكنه من مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الشرق، والسيطرة على بيت المقدس، وانتظر الغرب الأوربي، والصليبيون في المشرق، هذه المساعدة، ولكنها لم تتحقق، إلا أنّ بوادر هذه الأسطورة بدأت تظهر حوالي عام 616-1219هـ/617م عندما بدأ المغول في اجتياح أراضي الدولة الخوارزمية، و وصلت هذه الأخبار إلى الصليبيين وهم يُحاصرون مدينة دمياط المصرية في العام نفسه، وحينئذ اعتقد الصليبيون

والغرب الأوربي أنّ جنكيزخان، زعيم المغول، يُمثّل شخص الكاهن يوحنا، ثمّ توالى الأخبار عن انتصار المغول في عام 1223م بجنوب روسيا، و جومهم على جورجيا النصرانية، Kalka معركة نهر كالكا وبعدها هنغاريا سنة 1236م، ففزعت أوروبا بأسرها وكأَنَّ الغزوات الجرمانية قد عادت إليهم من جديد. وكان فريدريك الثاني، الإمبراطور الألماني، ممّن نادى، دون جدوى، سنة 1241م بحملة صليبية ضدّهم، ثمّ جاء دور البابوية لتحريك العواطف ضدّ المغول وذلك في عهد البابا جريجوري التاسع، ثمّ البابا إنوسنت الرابع، ولكن سرعان ما تغيّر عزمهم نحو العمل على تنصيرهم وتغيير وجهتهم إلى تدمير الإسلام وأهله، بالتحالف معهم، والواضح أنّ الحركة البابوية التنصيرية الكبرى في آسيا بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ترجع إلى انعقاد مجتمّع ليون Lyon الكنسي سنة 1245م، الذي ترأسه البابا الصليبي إينوسنت الرابع Innocent IV حيث ناشد ملوك أوروبا لإنقاذ النصرانية المتهاوية في آسيا، وخاطب ثنتان من كبريات الهيئات النصرانية التبشيرية، بعين الخصوص، وهما هيئة الدومنيكان وهيئة الفرنسيسكان المتمرّستان في الميدان، فأثمر ذلك اللقاء التاريخي بإرسال فرق تترى من المبشرين والدبلوماسيين إلى المغول وغيرهم، كانت أولها بقيادة الفرنسيسكاني يوحنا دي بلان دل كاربين Jean de Plan Carpin الذي أرسل بمهمّة تنصير الخان المغولي وجذبه للتحالف ضد المسلمين وكذا محاولة ضمّ الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وبعده تحرّكت البعثات والإرساليات بين الطرفين، المغولي والأوربي، ومنها محاولة البابوية الرامية إلى دفع الملك الفرنسي لويس التاسع، المعروف بالقديس، وملوك وأمراء أوروبا إلى العمل على مدّ جسور التحالف مع المغول، لكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل لأنّ هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم سادة العالم، ويأمرون أوروبا بإعلان الخضوع الفوري لهم، مما أدّى إلى تلاشي آمال الأوربيين في هذه المرحلة، لولا أنّ تدخّل هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، بمبادرة ناجحة والتي تمكّن بموجبها من عقد تحالف مع المغول.

أمّا المسلمون فكانوا في غفلة عن هذه الأحداث، بسبب تفكّك عالمهم إلى إمارات متفرّقة ومتشاحنة، أضعفت طاقتها، المادية والبشرية بشكل كبير، فضاعت من أيديهم مكاسب الوحدة التي حقّقها صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام ومصر، بجهود مُضنية، وقد ظهر عجز هذه الإمارات الإسلامية، إبان هذه الظروف، بشكل واضح وملموس إذ لم تلبث أن سقطت تحت ضربات التحالف المغولي الصليبي الأرمني، بوتيرة سريعة، إلا أنّ تلك القوّة وجدت لها في منتصف ذلك القرن قاهرًا تمثّل في ممالك مصر الذين قوضهم الله سبحانه، رحمة للبشرية

وُبرهانا على قُدرته، فهزمهم في معركة الفصل بعين جالوت سنة 658هـ/1260م، وغيرها، ولعلّ السبب في ذلك الإنهزام راجع لبداية انقسام دولة المغول بعد وفات جنكيزخان، وإسلام بعض حُكامها المُهمين مثل بركة، خان القبجاق، ما جعله شوكة مُؤلمة في حلق قُوى التحالف المغولي الصليبي ضدّ المسلمين.

لقد أدّى انهزام التحالف المغولي الصليبي، في معركة الثأر الإسلامي بعين جالوت، إلى تغيير موازين القُوى، مرّة أخرى، بالشرق الإسلامي كلّه بظهور قُوة المماليك المصريّة الفتية، ففزع لذلك المغول والصليبيون في الشرق والغرب على السواء، لأنّ ذلك كان إيذاناً إلى سقوط جميع مكتسبات ذلك التحالف التاريخي، وزوال قواعد أوربّا الخلفيّة في الشرق والتمثّلة في الإمارات الصليبيّة بالشام.

وعلى هذا رأى المغول، بعد تلك النقطة الحسّاسة، ضرورة السبق، هذه المرّة، بالمبادرة إلى عقد التحالفات مع المسيحيّين الأوربيّين وتجديد العهد معهم لتقويض قُوة الإسلام، في بلاد مصر والشام، التي باتت تُشكّل خطراً ماثلاً أمام التوسّع المغولي والوجود الصليبي على السواء في منطقة الشرق، فبادر الإيلخان المغولي هولاکو بالإرسال إلى أوربا والصليبيّين في الشرق يطلب المدد ضدّ المماليك، وفي موازات ذلك رأى المماليك في إسلام بعض حُكام المغول حُلفاء لا يُستهانُ بهم لتقويض أعداء دينهم وصدّهم عن بلادهم، ومن ثمّ التفرّغ كئيّة لإخراج الصليبيّين منها، على أنّ هؤلاء وحلفائهم ومحرّضهم في أوربّا، لم يُوقروا جهداً لتثبيت تلك الأقدام، أو إعادة إحياء تلك الإمارات الصليبيّة فيها بعد أن انطفأ وجودهم فيها منذ سنة 1291م، ما دفع أوربّا وباباواتها إلى معاودت الاتصال بحلفائهم المغول من أجل ذلك، وتكثيف السفارات والإرساليات التبشيريّة في أوساطهم، وكذا إنشاء مراكز تبشيريّة على الأراضي المغوليّة الغرض منها تنصير هؤلاء ليكونوا رأس حربتهم ضدّ أعدائهم، خاصّة وقد لمست البابويّة ذلك التسامح الديني بين المغول، وثنيهم ومسلمهم، مُستقبلاً، ضف إلى ذلك مخطّطات البابويّة في أوربّا لمحاصرة سلطنة المماليك اقتصادياً في سبيل إضعافها، ثمّ بعث روح الحملات الصليبيّة القديمة مُجدّداً لاسترداد بلاد الشام بأكملها.

ولقد أدّى، أيضاً، التسامح الديني والسياسي، الصوريّين، الذي اشتهرت به امبراطوريّة المغول إلى توغّل الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان في آسيا للتبشير بالمسيحيّة وإقامة مراكز لهم هناك وعلى رأسهم يوحنا دي مونت كورفينو Jean de Monte Corvino، بينما كانوا من قبل ممنوعين في ظلّ الحكم الإسلامي، وتمّ تبادل السفراء بين كلّ أنحاء امبراطوريّة

المغول والغرب الأوربي، وظهرت قوافل التجار الإيطاليين، منهم عائلة بولو والجنوية والبيزيرية والبنادقة والأرجوننية وغيرهم، في أنحاء الصين المغولية وإيران وغيرها، فأثرت أيما تأثير على صفحة المشهد السياسي والاقتصادي في المنطقة، وذلك كله ما سوف نحاول الكشف عنه. وهكذا فإن هذه الدراسة تكتسي، بهذا الشكل، أهمية مثلى لما لها من أثر الكشف عن الأهداف المغولية الصليبية الوثنية التوسعية الامبريالية، وضرورة الأحداث المتتالية في منطقة الشرق خاصة بعد بروز قوة المماليك المصرية الفتية التي هزمت المغول وأوروبا الصليبية في مواقع كثيرة، والتي باتت خطرًا داهمًا على مصالح الظلامية، شرقًا وغربًا، وعلى استقرار الإمارات الصليبية في قلب العالم الإسلامي في الشرق، ثم أثر هذه العوامل المتجددة والمتداخلة على أولئك المغول البدائيين، واندماجهم في الأمم والحضارات التي غزوها فأصبحوا وكأنهم منها، مُدافعين عنها وناصرين لها، وأثر ذلك الصراع المتشابك على سلطنة المماليك خاصة والمناطق التي غزاها المغول عامة وما جاورها، على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

ولا شك أنّ هناك دوافع موضوعية شجعتني على خوض غمار هذا الموضوع المتشابك الأوصال منها مستجدت الأحداث في القرن الخامس عشر الهجري/الواحد والعشرين الميلادي الذي عاود فيه الصليبيون والمجوس، متحالفين، هجمتهم على العلم الإسلامي، وما أشبه زماننا بزمان المماليك في مصر والشام، ظف إلى ذلك نُدرة الدراسات العلمية المغاربية المتخصصة التي تُعالج مثل هذا البحث مما أدى إلى عدم وفرتها في المكتبات الوطنية. ومما حثني أيضًا على تحقيق هذا العمل، توجّه معظم اهتمامات الدارسين إلى الظواهر العسكرية، التي كانت ساحة الشرق مرتعًا لنشاطها، فيما أهمل جانب العلاقات الإسلامية الصليبية في ظلّ المعادلة الجديدة المتمثلة في ظهور عنصر المغول، من الناحية السياسية والاقتصادية.

ولا يفوتني ذكر رغبتني في الوقوف على التطورات التي عاشها المشرق الإسلامي وما انجر عنها من تكالب الصليبيين عليه، ومُحاولة ربطها بما يجري في الوقت الحاضر من مُستجدات من حيث أسبابها ودوافعها ونتائجها.

ولإنجاز هذا الموضوع الذي يحمل عنوان "الأثار السياسية والاقتصادية للعلاقات المغولية - المسيحية - المماليكية منذ سنة 643هـ / 1245م إلى سنة 807هـ / 1405م"، وضعتُ خطة يقوم هيكلها على أساس مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة.

وقد عنونت الفصل الأول : " جهود المسيحيين (شرقا وغربا) في حلف المغول منذ سنة 643هـ / 1245م حتى 658هـ / 1260م وبرز ممالك مصر"، فحرصت فيه على توضيح

الاتصالات الحثيثة بين الصليبيين، شرفيين كانوا أو غربيين، وبين المغول قصد قهر الإسلام، والسيطرة على بلاد الشام، والأهداف التنصيرية في أوساط المغول التي كانت البابوية تصبوا إليها لضمهم إلى حضيرة المسيحية، فاستهلت بداية هذه الدراسة بالتنقيب حول ظروف إتصال البابوية بالمغول، وكيفيةها، وخاصة أسبابها الظاهرة منها والخفية، ثم انتقلت إلى دراسة اتصال السلطة الزمنية الأوربية بالمغول المتمثلة في شخص الملك الفرنسي لويس التاسع، وظروفها، ومُسبباتها، ونتيجتها، وأخيراً انتقلت إلى دراسة أهم علاقة صليبية مشرقية بالمغول، والمتمثلة في اتصال ملك أرمينيا الصغرى - هيثوم الأول -، وعمق تأثيرها على العالم الإسلامي الشرقي بالدرجة الأولى، ثم العالم الصليبي في الشرق والغرب، لأنقل فيما بعد إلى أهم ثمار هذه الاتصالات ألا وهي قيام الدولة الإيلخانية في بلاد فارس ودخول التحالف المغولي الصليبي إلى العراق وسقوط ملك بني العباس.

ثم انتقلت إلى الفصل الثاني لأبراز فيه السياسة المغولية الجديدة والحثيثة لاستكمال غزو جميع الشرق الاسلامي، بالمبادرة إلى طلب التحالف والعون من الصليبيين شرقا وغربا بعد الضعف الذي أصابهم إثر انقسام إمبراطوريتهم وإسلام خان القفجاق المعادي لإيلخانية فارس المجوسية وظهور قوة المماليك البحرية في مصر كقوة إقليمية، بل وعالمية، وأحققتها رفع راية الدفاع عن الإسلام وقيام دولتهم الخالدة في النفوس بعد انتصارهم الباهر في معركة الحسم والفصل في عين جالوت الفلسطينية، والسياسة القفجاقية المماليكية في صدّ التحالف الإيلخاني الفارسي الصليبي منذ عهد هولأكو خان إلى غاية أرغون بن أبقا، فعنونته "مظاهر العلاقات المغولية المسيحية (شرقا وغربا) المملوكية منذ 1260/هـ658م حتى سقوط آخر الإمارات الصليبية في الشام عام 1291/هـ690م"، وفي هذا الإطار تطرقت إلى سياسة المماليك الحكيمة في جلب المغول وتشجيعهم لاعتناق الإسلام ثم التحالف معهم لدحظ أطماع الصليبيين في المنطقة، وإعادة إحياء الخلافة العباسية من جديد ولكن هذه المرة في بلاد مصر تحت رعاية مملوكية، في مقابل النشاط التبشيري الملتهب الذي كانت البابوية تقوم به في أوساط المغول في الصين وفارس بصفة خاصة، كما تطرقت في خضم هذا الفصل إلى توضيح الروابط الوثيقة بين السياسة والاقتصاد وأتتهما لا ينفصلان فأظهرت الجهود البابوية والصليبية الأوربية الحثيثة لحصار وعزل دولة الإسلام اقتصاديا وإضعافها، تمهيدا لهجمة جديدة، في مقابل العقود التجارية الهامة التي كانت تربطها دولة المماليك مع بعض القوى الأوربية لكسر هذا الحصار، ثم أخيرا بيّنت نتيجة فشل التحالف الصليبي المغولي المتمثلة في طرد الصليبيين في سنة

1291م نهائيا من آخر معاقلهم في عكا، إلى غير رجعة، فكانت تلك أكبر فاجعة وصدمة نفسية أصابت المسيحيين في العالم أجمع والبابوية الصليبية في أوربا خاصة. ولإبراز ردة فعل المغول في الشرق والصليبيين في أوربا على السوء بعد جلاء هؤلاء من بلاد الشام سنة 1291م، وكذا تغلغل الإسلام بقوة في البيت الإيلخاني الفارسي تطرقت في الفصل الثالث الذي عنوانته بـ: " مظاهر العلاقات بين الأطراف الثلاث منذ سقوط عكا وتحكم الاسلام في خانية فارس إلى وفاة تيمورلنك" إلى دراسة مدى تشرب المغول للدين الاسلامي وتأثيره سلبا أو إيجابا في علاقتهم مع المماليك في مصر والشام من جهة والأوروبيين من ناحية أخرى سياسيا واقتصاديا إلى أن زالت دولة الإيلخانيين في بلاد فارس والعراق وظهور الإجتياح المغولي الثالث للبلاد الإسلامية في آسيا والتمثل في حروب تيمورلنك ضد معظم دول المنطقة خاصة العثمانيين والمماليك المصرية، فأبرزت فيه ردة فعل أوربا لذلك الحدث المهم ومحاولتهم استمالة تيمورلنك إلى التحالف معها سياسيا وتجاريا ومحاولة رجال البابوية النفوذ من خلاله إلى آسيا بأكملها للتبشير بالمسيحية. وفي الخاتمة توصلت إلى بعض النتائج حول الترابط الوثيق بين المجالين السياسي والتجاري وتأثيرهما على المنطقة الآسيوية بصفة عامة.

II- أسباب اختيار الموضوع و حدوده :

لم يكن من السهل بمكان تحديد الإطار الزمني والمكاني لهذه الدراسة وذلك راجع لعدة أسباب، منها امتداد وتراوح حكم المغول باختلاف خوانينه لقرون مديدة وتنوع حكوماتهم، واكتساحها لرُقعة جغرافية شاسعة، ولذلك ارتأيتُ إلى تحديد محور الدراسة ما بين سنة 643هـ/1245م وهي السنة التي ابتدأت فيها تحركات أوربًا، وبخاصة بابا روما، للاتصال بالمغول من أجل التحالف ضد المسلمين، مارًا بسنة 658هـ/1260م، وهي السنة التي استعاد فيها الإسلام كرامته أمام التحالف المغولي الصليبي، في معركة عين جالوت الشهيرة، وصولاً إلى سنة 807هـ/1405م وهي السنة التي توفي فيها تيمورلنك المغولي.

أما سبب اختياري لهذا الإطار الزمني، فهو راجع إلى أنه حافل بأحداث مفصلية، وهو كما أراه اللبنة الأولى الممهدة لتحوّلات هامة على مستوى آسيا وأوربًا، كان للمغول دورًا هامًا في حدوثها، مثل ظهور قوة العثمانيين وتنامي الوعي القومي الأوربي، ورغبة مني أردت أن أبرز آثار ذلك الصراع المتشابك الأطراف في الساحتين على بلاد الشام بما أنّها أحد محاور الصراع بين الإسلام والصليب، كما قصدت من وراء هذه الدراسة وعلى الأقلّ :

1- تسليط الضوء على بعض الجوانب التاريخية المهمة ووثيقة الصلة بالعلاقات بين الشرق والغرب بدخول محرّك جديد في حلبة ذلك الصراع، ألا وهو العنصر المغولي الذي ظهر فجأة ودون سابق إنذار لتتغيّر به كلّ موازن القوى في آسيا وأوربًا عامّة، وفي الشرق الإسلامي خاصة.

2- تكتسي هذه الدراسة نظرة على ما كانت عليه التحركات الدبلوماسية في تلك الأزمنة الغابرة، ومختلف تياراتها، وأدوات التأثير والضغط لبلوغ الغاية وترجيح الموازين.

3- أردنا أن نبرهن أنّ السلاح الإيديولوجي هو أول حافز للنصر أو الهزيمة، وذلك ماجرى فعلاً في عين جالوت عام 658هـ/1260م، وهي نتيجة لبعض المتغيّرات الهامة التي طرأت على الساحة المغولية، منها إسلام بعض أمراء المغول المؤثرين، وبروز الصراع المغولي الداخلي حول السلطة، وغيرها.

4- انعدام وندرة الدراسات الأكاديمية المتخصصة لدراسة هذا الجانب الحساس خاصة في بلادنا الجزائر المسلمة السنيّة.

5- أغلب الدراسات التي تناولت هذه الفترة الحرجة انصبّت على الميدان العسكري وما أحدثه المغول من دمار في الأنفس والعمران، وأغفلت دراسة العلاقة الوثيقة بين ظهور المغول وتسلّط

- التشيّع ونموّ الوعي الصليبي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأسبابه وكذا أثر تلك الغارات والحروب على سياسات المنطقة ونشاطها الاقتصادي.
- 6- تشجيع البحث من هذه الزاوية المنعدمة تمامًا في بلاد الجزائر.
- 7- تُمثّل هذه الدراسة نافذة على ما يحدث في عصرنا هذا، بتشابه الأسباب والأحداث والمحرّكات والدوافع والأهداف.
- 8- المساهمة في البحث العلمي من هذه الزاوية الحرجة، وإثراء المكتبة المتخصصة بهذا الموضوع الحساس.

III- عرض لأهمّ مصادر هذا البحث :

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مجموعة متنوعة من المصادر، وهي تنقسم إلى قسمين بارزين : أ -المصادر الأجنبية، ب -المصادر العربيّة.

أ -المصادر الأجنبية:

لا شكّ أنّ المصادر الأجنبية تحتل مكانة بارزة في هذا الموضوع، إذ أفادتني في تغطية جانب هام من العلاقات المغوليّة الصليبيّة، ويأتي في مُقدّمها كتاب المبعوث الفرنسيكاني **يوحنا دي بلان دي كربين** والذي يحمل عنوان **تاريخ المغول Historia Mongolarum** (1)، وهو مبعوث البابا إنوسنت الرابع إلى المغول سنة 1246م، وكان أحد أوائل تلامذة القديس فرانسوا **S^t Francois d'Assise** رائد حياة السيسترسيان الدينيّة **Les Cisterciens**، ولد بايطاليا، في منطقة تدعى "بلانو-كربينو" **Plano-Carpino** بناحية بيروجيا **Pérouse** حوالي سنة 1182م، تنقّل ما بين سنتي 1221م و1241م من إيطاليا و لمانيا حتّى إسبانيا لنشر المذهب الفرنسيكاني، وحين ظهر خطر المغول على أوربّا كان هو من أوائل مبعوثي البابا إليهم لتنتيهم عن مُهاجمة أوربا ومحاولة تنصيرهم، وحين عودته نصّب البابا إنوسنت الرابع أسقفًا لمنطقة أنتقاريا **Antvaria** في دلماتيا **Dalmatie** وكانت وفاته سنة 1251م في روما أو "بيروز". وقد ساعدني كتابه في كشف مراحل وظروف سفارته إلى

(1) اعتمدت على الترجمة الفرنسيّة والإنجليزيّة منها أنظر:

Forestetter(Michel), *Voyageurs Etrangers en Russie : Textes choisis du Xe au XXe Siécle*, la Table ronde, Paris, 1947 ; Charton (M. Édouard), *Voyageurs Anciens et Modernes*, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855 ; Dawson, *The Mongol mission*, first edition, London, 1955.

المغول، والذي احتوى على وصف دقيق لأحوال المغول وبيئتهم.

ويليه في الأهمية مُذكَرات المبعوث الملكي الفرنسي وليم روبروك **Guillaume de Rubrouck (1)**، وهو من مواليد قرية فرنسيّة قريبة من مدينة كسيل Cassel، أمّا عن تاريخ ولادته فهي مجهولة عند جمهرة المؤرّخين، ولاكتّهم يقدرّون بلوغ سنّه في سنة 1253م ما بين الخمسة والثلاثين وبين الخمسة والأربعين سنة، وعلى هذا يكون قد ولد حوالي سنة 1215م أو قبل ذلك بقليل، وقد كان مسيحيًا ينتمي إلى جيل الفرانسيكاني الثاني، غير أنّه لم يُقابل ما يسمّونه قديسهم فرانسوا، بينما كان صديقًا للملك الفرنسي لويس التاسع، حيث انظّم إلى حملته الصليبيّة على مصر، وشهد هزيمته أمام المماليك المصريّة، وكان سفير هذا الملك الفرنسي إلى المغول سنة 1252م، فقابل "باتو" على نهر الفولجا، ومانكوخان في العاصمة المغوليّة قوراقورم.

ترك لنا وليم روبروك كتابه، طريق السفارة إلى الشرق *Itenerarium ad Partes Orientales* وهو عبارة عن رسالة طويلة ذكر فيها ما شاهده في سفره والطريق التي سلكها، والحياة اليومية للمغول، واحتكاكه بهم، والمفاوضات التي أجراها مع المغول بغية التحالف معهم ضد المسلمين، وعلى هذا تعتبر هذه الرسالة مصدرًا من الدرجة الأولى، بحكم أنّ صاحبها هو نفسه طرفاً في الأحداث.

وثمة مصدر آخر له أهميّة البالغة في هذه الدراسة وهو للمبعوث البابوي سيمون دي سانت كاتين **Simon de Saint Quentin (2)**، وهو الدومنيكاني الذي رافق أسكلين، المبعوث البابوي الرئيسي إلى المغول، أمّا كتابه فهو تحت عنوان "تاريخ التتار" *Historia Tartarum* إلا أنّ أصل هذا الكتاب مفقود ولم يجد الباحث لترجمة صاحبه شيء، غير أن المؤرّخ *Vincent de Beauvais*، المعاصر له، ذكر في مستهلّ دراسته للمغول في كتابه *Speculum Histiriale* أنّه اعتمد على مصدرين أساسيين هما "يوحنا دي بلان دي كربين"، و"سيمون دي سانت كاتنين" ولهذا كان من اليسير استخراج أصل *Historia Tartarum* عن طريق المقارنة بكتاب *Historia Mongolarum* المعلوم أعلاه.

(1) إعتدّت على الترجمة الفرنسيّة و الإنجليزيّة منها. أنظر:

Guillaume de Rubruk, : Voyage dans l'Empire Mongol, traduction et commentaire de Claude et René Kapler, Payot, Paris, 1985 ;

Dawson, The Mongol mission, first edition, London, 1955.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin ,Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie : orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965.

يسرد هذا المصدر بعض أحداث بعثة أسكلين إلى الشرق، حيث قابل بايجو وهو أحد كبار أمراء المغول في بلاد فارس، ورجوعه إلى المقر البابوي بالرد المغولي وفي صحبته مبعوثان مغوليّان إلى أوربّا هما أيبك Aybeg وسرجيس (أو سرقيس) Sargis، المسيحيّين النسطوريّين، لمقابلة البابا في إيطاليا.

وأشير أيضًا إلى المؤرّخ هيثوم Hayton (1) الذي يُعتبر كتابه من أهمّ المصادر الأرمينيّة التي كُتبت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، حول تاريخ وجغرافية الشرق الأسيائي وعلاقته بالمغول، وهو بعنوان : زهرة تواريخ أرض الشرق (بلاد الشرق) La Flor des Estoires de la Terre d'Orient، وتكمن أهميّته في أنّ صاحبه هو ابن أخ الملك هيثوم الأوّل (1223-1268م) ملك أرمينيا الصغرى الذي تحالف مع المغول ودخلت عساكره بغداد إلى جانب هولوكو، وكان مولده في حوالي سنة 1230م، ثمّ قضى معظم طفولته في بلاط عمّه الملك، فسمع منه واطلع على وثائق الأحداث، أظف إلى ذلك احتمال تمثيله للأمراء الأرمن في بلاط خانات التتر، خاصّة عند غازان (أو قازان، إيلخان بلاد فارس من 1295م إلى 1304م) و الذي كان يعرفه جيّدًا، وقد أشار هيثوم Hayton أنّه كان شاهد عيان عن فترة حكم "أبقا خان" منذ توليته عرش المغول سنة 1265م، حتّى السنة التي توقّف فيها مؤلفه حول التتر أي عام 1305م. أمّا كتابه هذا فقد قدّم للبابا كليمانت الخامس Clément V في بواتييه Poitiers شهر أوت من سنة 1307م.

يحتوي كتاب Hayton على أربعة أقسام :

يصف أولها أربعة عشر إمارة آسيويّة ابتداءً من الصين (Cathay, Chine) حتّى بلاد الشام وأرمينيا، أمّا ثانيها فهي ذكر مختصر لمختلف الأحداث التي مرّت بالأسر الحاكمة العربيّة منها

(1) أنظر : La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906.

واعتمدت أيضًا على النسخة الفرنسيّة المترجمة :

La Fleur des Histoires de la Terre d'Orient, ds Regnier-Bohler, Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle, Chronique et Voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

وانظر أيضًا :

بوعمام (فاطمة) : العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة 1375م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د. إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعيّة (1414-1415هـ/1993-1994م)، غير منشورة، ص 10-11.

والتركيّة منذ عهد الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ألى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وأمّا القسم الثالث، فهو أطولها، و هو مخصّص لتاريخ المغول منذ جنكيزخان إلى غاية بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وأخيراً يأتي القسم الرابع وهو عبارة عن دراسة معمّقة حول الحَرْب الصليبيّة وبيت المقدس، قام بها المألّف بطلب من البابا كليمانت الخامس.

وأذكرُ أخيراً الكونيتابل سمباد **Le Connetable Sembad** وهو أخو ملك أرمينيا الصغرى، هيثوم الأوّل، وابن البارون الكونستال قسطنطين، وُلد سنة 1208م، وكان شاباً حينما استدعاه الملك ليون الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، إلى بلاطه ليكون له عوناً في تسيير شؤون البلاد، وبعد وفاة هذا الأخير عام 1219م، انتقل الحكم إلى العائلة الروبينيّة بزواج هيثوم الأوّل من إيزابيلا، الوريثة الشرعيّة الوحيدة لليون الأوّل، وبهذا الشكل صار سمباد أكثر إحاطة بأمور المملكة.

وقد ترأس سمباد السفارة التي بعث بها الملك الأرميني هيثوم الأوّل إلى قراقورم، عاصمة كيوك خان، عام 1246م لتهنئته وطلب التحالف ضدّ المسلمين في الشرق عامّة وقونية خاصّة، لاسترداد المدن الأرمينية التي اغتصبها هؤلاء، وقد ترك لنا سمباد معلومات هامّة حول هدف زيارته للخان المغولي من خلال الرسالة المؤرّخة في عام 1243م والتي بعث بها إلى هنري ملك قبرص، زوج أخته سديفنيه، وهو في طريقه إلى قراقورم، والمنشورة في :

Guillaume de Nangis, **vie de saint Louis**, Rec. Des historiens de Gaules et de la France, Academie des Inscriptions Et belles letters, Paris 1840, T. XX, p. 360.

وبقي سمباد يحتفض بمنصبه حتّى وفاته عام 1276م، كما ترك كتاب بعنوان:

Chronique du royaume de la petite Arménie

مجموع ضمن مجموعة المؤرخين الأرمينيين:

Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens,

Publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris,

1869-1906, T.I.

ويبدأ القسم الأوّل منه من مستهلّ سنة 400 للتقويم الأرميني الموافق لسنة 952م، وهو

عبارة عن اختصار لما جاء به كل من "متى الرهاوي" و "جريجوار الراهب"، أما القسم الثالث فبيدأ تاريخه من سنة 1152م، ثم أضاف سمباد إلى كتابه معلومات خاصة انتقاها إما من المصادر الملكية بمدينة سيبس أو من المعلومات الخاصة حسب الأحداث التي عاينها أو وصلته أخبارها وكل ذلك بحكم منصبه في مملكة أرمينيا الصغرى، وقد انتهى من تأليفه لكتابه هذا سنة 1274م، أي سنتين قبل وفاته.

ثم أكمل مؤلف مجهول كتابه من عام 1286م إلى سنة 1331م، ولم يكتفي هذا المؤلف المجهول بالإكمال، بل أثاره أيضًا ببعض المعلومات التي غفل عنها سمباد، ويظهر ذلك من خلال استعماله للضمير -هو- إشارة إلى سمباد، وكذا أسلوبه الذي طغت عليه العبارات العامية بعكس أسلوب الكونيتابل سمباد(1).

ب - المصادر العربية:

تكتسي المصادر العربية أهمية كبيرة في دراسة موضوع هذه المذكرة، ولا تقل في الدرجة عن مثيلاتها الأجنبية، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الثلاثية، وأعني بذلك المغولية والإسلامية والمسيحية، ويأتي في مقدمة هذه المصادر الكتاب المسمى السلوك لمعرفة دول الملوك لصاحبه مؤرخ الديار المصرية، وهو أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المقرئ (766- 845هـ/1365-1441م)(2)، وأصله إلى حارة المقارزة، ببعلبك في أيامه، ولد ونشأ ومات في القاهرة، اتصل بالملك الظاهر برقوق المملوكي، ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة 810هـ/1404م، ثم عاد إلى مصر.

له عدة مؤلفات، ولعل أهمها الذي ذكرته آنفًا، وهو في جزئين لكل جزء منها قسمين، يشتمل على عدة أحداث للحروب الصليبية، وتاريخًا للمغول منذ ظهورهم إلى معركة عين جالوت، ثم ينتهي عند بعض سلاطين المماليك، إذ استهل مؤلفه ابتداء من أحداث عام 577هـ/1182م ليتوقف عند حوادث سنة 822هـ/1418م.

(1) أنظر : Sempad Le Connétable, Chronique du royaume de la petite Arménie. dans R.H.C., D. A., publication A.I.B.L., Paris 1869-1906.

(2) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956م، والمقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.

وقد اعتمد المقرئزي على عدّة مؤرخين في كتابة السلوك منهم ابن الفرات والبرزالي والنويري وبيبرس الدوادر، وقد أورد معلومات هامة ومفصلة حول دخول المغول إلى بلاد الشام عند هجوم هولكو وغازان وتيمورلنك، مع النتائج، ويصحّ القول أنّه تقرّد ببعض المعلومات التفصيليّة التي لم يقدمها غيره من المؤرخين.

والملفت للنظر أنّ العصر المملوكي امتاز بحظ وفير من كتابة السير، ومن أهمها السيرة التي كتبها عز الدين محمّد بن علي بن إبراهيم بن شدّاد (ت. 1285/هـ684م) وعنوانها "تاريخ الملك الظاهر"، وهو مؤرخ وجغرافي ولد بخلب وعاش فيها حتّى كان الهجوم المغولي على المدينة سنة 1259/هـ658م فهاجر إلى مصر وانخرط في خدمة الظاهر بيبرس.

تناول تاريخ الظاهر بيبرس سيرة السلطان بيبرس البندقداري، ولم تصلنا كاملة وإنّما بين أيدينا الجزء الثاني(1) الحاوي لأخبار سنوات (670-676/هـ1262-1278م)، وقد قسمه صاحبه إلى ثمانية وعشرين فصلا، واتبع منهج الحوليات حسب السنين والموضوعات والأحداث بالشهور والأيام، وتناول في مؤلفه خصال السلطان بيبرس وإنجازاته وسياسته الداخليّة والخارجيّة مع الاسماعيليّة والنوبيين والأرمن والصليبيين والمغول، فتبيّن من خلالها أنّ السلطان الظاهر لم يعتمد في رسم علاقاته الخارجيّة على القوّة الضاربة فحسب، بل إنّهُ استعمل سلاحا لا يقل خطورة عن السلاح العسكري تمثّل بإقامة العلاقات الدبلوماسية مع المغول من جهة ومع الفرنج الصليبيين من جهة أخرى، وقد أفادني المجلّد من تلك الناحية أيما إفادة.

وثمة مصدر آخر يُعدّ من الدرجة الأولى ضمن دراسة هذا الموضوع، وهو ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل ت. 1292/هـ692م)، وهو من المؤرخين المصريين المهمين الذين اعتمدت عليهم في بعض جوانب الدراسة، فقد كان كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولّى الظاهر بيبرس عرش السلطنة، وقد اشترك في موقعة عين جالوت إلى جانب المظفر قطز، واستمر ابن عبد الظاهر في مركزه بديوان الإنشاء طوال فترة حكم بيبرس وأثناء حكم ابنه، وجزء من فترة حياة قلاوون وابنه الأشرف خليل.

دوّن ابن عبد الظاهر عدّة سير، لعلّ من أهمّها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، وقد كتبها للظاهر بيبرس، و"تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" الذي كتبه

(1) ابن شدّاد، المصدر السابق، ص 18-22

للمنصور قلاوون، وكان الدافع من كتابة سيرة الظاهر لأن بيبرس كان أول شخصيّة مملوكيّة أرست قواعد السلطنة إثر انتصار عين جالوت، وكان أول من خطط لاسترداد المعازل الإسلاميّة من يد الصليبيين فأرعبهم، كما أنّه اشتدّ في زمانه الصراع بين المسلمين والفرنجة من جهة، وبين المسلمين والمغول من جهة أخرى.

وقد أُلقت "الروض" اللثام عن عصر بيبرس بشكل واضح، فلولاها ولولا سيرة ابن شداد "تاريخ الملك الظاهر" لبقيت المعلومات عن السلطان الظاهر بيبرس غير واضحة، أمّا منهج ابن عبد الظاهر في التأريخ فكان وفق طريقة الحوليات حسب السنوات وبعناوين فرعية تُشير إلى طبيعة الحوادث. أمّا تشريف الأيام، فقد بدأ كتابته من أحداث سنة 680هـ إلى غاية وفاة قلاوون، غير أنّ محقق الكتاب استعان في تمهيد الحوادث التي سبقت 680هـ من ابن الفرات وذلك من سنة 678هـ، وكان منهج ابن عبد الظاهر في التشريف يماثل الروض، وكانت استفادتي منه تتمثّل في بعض المعاهدات المعقودة بين المماليك والصليبيين، إضافة إلى معلومات سياسيّة أخرى.

وتجدرُ الإشارة أيضًا إلى مصدر آخر من الطراز الأوّل، له أهميّة البالغة في هذه الدراسة، وهو المؤلّف المُسمّى "جامع التواريخ" لصاحبه فضل الله (رشيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير (عماد الدولة) ابن علي (موفق الدولة) أبو الفضل الهمداني (ت. 716هـ/1316م(1))، اليهودي الأصل الشيعي الديانة، ومن المشتغلين بالفلسفة والطب والتاريخ، قال عنه الذهبي : "كان له رأي ودهاء ومروءة"، اتصل بإيلخان التتار "محمود غازان" وخدمه بطبّه إلى أن ولي الوزارة له، ثمّ اتهم باليهوديّة والإلحاد بعد موت الإيلخان "خدابنده" وأحرقت كُتبه بعد قتله، فبقي منها "جامع التواريخ" في أربعة مجلّدات، بالعربيّة والفارسيّة. وقد استعنتُ في دراستي هذه بقسمين من كتابه ذلك، أعني "تاريخ غازان" و "تاريخ المغول في إيران"(2).

واعمدتُ كذلك على كتابين مهمّين لابن العبري : غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرن (أو هارون) ابن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري، أو

(1) أنظر : خير الدين الزركلي : الأعلام (قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب و لمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، لبنان، مايو 1986م، ج5، ص152.
(2) الهمداني : جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة وترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار الثقافة للنشر، ط1، القاهرة، (2000هـ/1420م)، وجامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ترجمة محمّد صادق نشأة، ومحمّد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو 1960م.

Aboul-Pharajius باللاتينية، أو Bar-Hebræus، وهو مؤرخ سرياني مستعرب، من نصارى اليعاقبة، ولد في ملطية (من ولاية ديار بكر)، كان قد فرّ مع أبيه إلى أنطاكية، سنة 1243/هـ639م، بسبب هجوم المغول، فتعلّم العربية والطب، واشتغل بالفلسفة والآهوت، كان أسقفاً لليعاقبة في حلب، ثم ارتقى إلى رتبة "جاثليق"، أي رئيس رؤساء الكهنة السريانين في بلاد المشرق والعراق وفارس وما إليهما، على كرسي المشرق سنة 1264/هـ661م، وتوفي في مراغة، بأذربيجان، سنة 1286/هـ685م، وله خمسة وثلاثين مصنفاً في علوم مختلفة، منها "تاريخ الدول" باللغة العربية ويُعرف أيضاً تحت عنوان "مختصر الدول"، انتهى به إلى أحداث سنة 1284/هـ683م، وقد استعنت بطبعتين مختلفتين منه، وآخر بعنوان "تاريخ الزمان"، جمع فيهما بعض المعلومات الهامة عن "بني أرتق" السلاجقة وعن المغول في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسوريا، وهاذين المُصنّفين ضمن بيبليوغرافيا هذه الدراسة(1) أيضاً.

وقد أفادني كتاباً آخر لا يقل أهمية عن غيره لصاحبه بدر الدين العيني (ت. 855/هـ1451م)، وأصله من حلب، وكانت ولادته بقرية تُدعى عين طب، وسكن القاهرة، أمّا مؤلفه فيحمل عنوان "عقد الجمان"، وهو حسب الباحث "حاجي خليفة" في كتاب تراجمه، فإنّه يحتوي على تسع عشرة مجلّد، بينما يحتوي أحد أجزاءه تلك معلومات غزيرة حول الحروب التي دارت بين سلاطين مصر والفرنجة الصليبيين بالشام ابتداء من سنة 1224/هـ621م إلى سنة 1281/هـ679م، وقد استعنتُ به في الإطلاع على التعصّب الصليبي الحاقِد في مدينتي دمشق وحلب في الفترة التي أحكم هولاء قبضته عليهما(2).

وأذكر في ختام هذا العرض الوجيز المؤرخ ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي، الذي ولد بمصر وتوفي سنة 874/هـ1470م، وقد ألف كتباً كثيرة، منها "المنهل الصافي" و "البحر الزاخر"، أمّا أهمّها وهو ما اعتمدتُ من مصنفاته في هذه الدراسة

(1) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، (1418/هـ1997م)، وطبعة المطبعة الكاثوليكيّة، ط1، بيروت، أب 1958م، وتاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرملّة وقدم له الأب جان مورييس فييه، دار المشرق، بيروت، 1406/هـ1986م.

(2) العيني: بدر الدين محمود(ت. 855/هـ1451م):
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المالك، تحقيق محمد أمين، دار الكتاب والوثائق القوميّة، مصر، القاهرة، 1431/هـ2010م.

- منتخبات من كتاب عقد الجمان، ضمن مجموعة المؤرخين الشرقيّين. أنظر:

Recueil des Historiens des croisades, Documents Orientaux, publication de l'academie des inscriptions et Belles Letters, Paris, 1869-1906.